الفصل الأول

آشور. الخلفية - والبدايات

لا بُدّ أن القُرَّاء في العالم الغربي قد سمعوا بالآشوريين فيما ذكرته التوراة عنهم، فقد أشارت إليهم التوراة بأنهم القوة الإمبراطورية التي قضت على مملكة إسرائيل، وأوقعت ما يسمَّى بالقبائل العشر في الأسر.

وبعد جيل من ذلك التاريخ قام الآشوريون بمهاجمة أورشليم عاصمة ما كان يسمَّى دولة يهوذا، ذلك الهجوم الذي أوحى إلى الشاعر بايرون نظم قصيدته التي تبدأ بـ: هجم الآشوريون كالذئاب على قطيع الغنم.

وكانت كتائبهم الحربية تلمع بالألوان الأرجوانية والذهبية.

ونتيجة لما ذكرته التوراة وما ذكره الشاعر بايرون، فقد وُصِم الآشوريون بالنسبة للعالم المتكلم باللغة الإنكليزية بصفاتهم البربرية الخالية من الشفقة والرحمة، كما وصفوا بالضرر والخبث.

والحقيقة أنهم كانوا خشنين وقساة وغلاظ القلوب عند محافظتهم على النظام، ولكنهم كانوا حماة للمدنية ولم يكونوا مخربين أو برابرة.

لقد حدثت فصول حوادث أورشليم خلال قرن اختفى فيه الآشوريون نهائياً كشعبٍ مميَّز، ولكن معظم ما ميِّز الآشوريين في تاريخ العالم كان له جذوره خلال ألف سنة أو ما يزيد ظهرت فيها هويتهم الوطنية التي كانت خلفهم عندما هاجموا فلسطين.

الإطار الجغرافي

لقد كانت الإمبراطورية الآشورية في أقصر امتدادها واسعة، فقد امتدت تلك الإمبراطورية لمدة قصيرة خلال تلك الفترة التوراتية من مصر من جهة إلى بلاد العجم (إيران) من الجهة الأخرى، والحقيقة أن الوطن الآشوري المركزي الذي

obeikandl.com

سيطر على أراضي الشرق الأدنى كان منطقة صغيرة جداً، فلم يكن أكبر من منطقة انجليا الشرقية أو ويلز في بريطانيا أو فلسطين، أو ولاية كونيكتكوت في أمريكا.

فلقد كانت آشور أصلاً تضم الأرض الممتدة على طول نهر دجلة الأوسط، وكانت حدودها الشمالية ممتدة من شمال الموصل حيث سفوح الجبال لتصبح سهلاً، وأما جنوباً فقد امتدت إلى مسافة مئة وثلاثين ميلاً شمال غرب بغداد، في منطقة ينساب فيها نهر دجلة خلال سلسلة من التلال تدعى جبل مخول غرب دجلة، وجبل حمرين إلى الشرق، ويقع إلى غرب دجلة سهل واسع (وهو عبارة عن هضبة منخفضة من الحجر الكلسي) يدعى: منطقة الجزيرة، حيث هناك سلسلة جبلية تدعى: جبل سنجار في نهايتها الشمالية، وتمتد منطقة الجزيرة دون أي تقاطع شرقي غربي حتى نهر الخابور، وفي هذا السهل المفتوح أمام البدو الرَّحَّل من جهة الصحراء السورية كان امتداد السيطرة الآشورية في أي وقت من الأوقات يعتمد على القوة العسكرية والتصميم والعزم الآشوري.

وفي الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المنطقة وعلى محاذاة نهر دجلة كانت تقع مدينة آشور وهي أقدم عواصمهم.

وفي المنطقة الشرقية داخل بلاد آشور كان هناك رافدان رئيسان لنهر دجلة وهما يحملان اسم الزَّاب، وكان الزاب الأصغر أو الأدنى يلتقي بدجلة شمال جبل حرمين، بينما كان الزاب الأكبر أو الأعلى يرفد دجلة على بُعد خمسة وعشرين ميلاً منحدراً من الموصل.

وتؤلف سلاسل الجبال العالية التي يبدأ منها نهر الزاب منطقة ربع دائرية تحيط بدولة آشور من الشرق والشمال.

وهكذا وبينما نجد هناك سهلاً منفرداً إلى الغرب من دجلة، إلا أن آشور الشرقية تنقسم إلى ثلاث مناطق، فالقطاع الأول: عبارة عن سهل واقع بين الزاب الأكبر والجبال الشمالية، وهذا ما جعل نينوى أعظم مدينة في الأزمنة القديمة، كما هو الحال بالنسبة إلى الموصل في هذه الأيام.

أما القطاع الثاني: فهي المنطقة الواقعة بين الزابين ومركزها أربيل، وكان هذان القطاعان دوماً ابتداءً من الزمن الذي ظهرت به آشور هما العنصرين الرئيسين في دولة آشور.

أما القطاع الثالث: فهو المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصغر الممتدة حتى جبل حرمين، وتضم هذه المنطقة كركوك وهي الآن مركز آبار البترول، أما في الأزمنة القديمة فكانت تدعى أرابخا **Arabkha** ولكن دولة آشور لم تسيطر على هذه المنطقة، وكانت أرابخا وأربيل ونينوى مع مدينة آشور الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة، هذه المدن كانت هي المدن الرئيسة المهمة، وذلك لأن دولة آشور كانت على الغالب مؤلفة من مناطق ريفية.

وباعتبار هذه الأقسام الرئيسة الأربعة لم تكن آشور عبارة عن وحدة جغرافية متكاملة، فقد كانت هنالك فروق بارزة ذات علاقة بالأرض والمناخ موجودة بين كل جزء من هذه الأجزاء والجزء الآخر.

ولكن ومن جهة أخرى فقد كانت الجهات الرئيسة الأساسية متشابهة بحيث تصبح المنطقة بأكملها بلاداً واحدة منفصلة ومتميزة عن المنطقة الواقعة جنوبها، وفي معظم أراضيها كان معدل هطول الأمطار كافياً للزراعة دون اللجوء إلى عمليات الري وذلك على الأقل في السنوات الخصبة الجيدة، مع أنه وبالنسبة إلى المناطق الجنوبية القصية في آشور كان الوضع الزراعي هامشياً يتصف بتخلف وقصور زراعي أثناء الفصول الرديئة المحاصيل.

وإذا تابعنا الاتجاه جنوباً فيما وراء خط عرض جبل حرمين ينخفض معدل هطول الأمطار الكافي لنمو الحبوب دون اللجوء إلى عمليات الري، وفي نفس منطقة خط العرض هذه هناك تغيرات في التربة وذلك لأن سهول آشور هنا معرضة لوجود الطمي الذي يسببه مجرى نهر دجلة، وتتحد هاتان الميزتان لإنشاء حدود جغرافية فيما بين آشور والأراضي المجاورة في الجنوب.

وخلال الألف الأولى والثانية قبل الميلاد كانت تلك الأراضي الجنوبية تعرف باسم بابل، وفي زمن أقدم كانت تعرف باسم أكاد وسومر (وهما نصفاها

obeikandi.com

الشمالي والجنوبي) ولم تكن الحدود ما بين آشور وبابل في الأزمنة القديمة لتتبع الحدود الطبيعية، ولكنها كانت تتقدم وتتراوح إلى الأمام والخلف طبقاً لمقادير حياة الدولتين، هذا وتبقى الميزات الجغرافية التي تميز آشور عن بابل واضحة في هذه الأيام، فالرحلة في فصل الربيع من بغداد وهي عاصمة العراق الحديثة وخلال منطقة بابل القديمة إلى الموصل التي تقع قرب عدة عواصم آشورية تقود السائح إلى منطقة مختلفة، ففي منطقة بغداد جنوباً تصبح الزراعة السائدة هي زراعة أشجار النخيل، وليس هناك من غطاءٍ عشبي عدا المناطق التي تكثر فيها الحدائق والمزارع، فالأراضي تبدو منبسطة في الأفق، وفي معظم أوقات السنة تصبح الأرض المعرضة لحرارة الشمس قاحلة وميتة ولا سيما حيث لا تصل إليها أقنية الري، ولكن عندما يقترب السائح من الموصل يجد هناك تغييراً جذرياً، فالأراضي المنبسطة تتحول إلى سهول منخفضة، وفي فصل الربيع تصبح خضراء بما تحمله من محاصيل الحبوب والمراعي المزدهرة بما فيها من الأزهار والأعلاف، وتخترق الوديان تلك السهول المتماوجة وتمتلئ تلك الوديان بالمياه بعد سقوط أمطار الربيع حيث ترى سلاسل التلال العالية في الأفق، وهنا يشعر السائح أنه قد وصل إلى آشور.

وتعتمد القوى الرئيسة في آشور القديمة على أراضيها الخصبة المزروعة بالذرة، ففي كل منطقة من مناطق آشور هناك بقع من الأرض مزروعة بالذرة، ولكن هناك منطقتين كبيرتين بصورة خاصة متميزتين بالقدرة على الإنتاج وقد كانتا دوماً بهذا الشكل إحداهما سهل أربيل الذي يوصف بأنه أفضل منطقة منتجة للقمح في العراق، أما المنطقة الثانية فهي منطقة سهل الموصل، وإلى الغرب من نهر دجلة هناك حزام مزروع بالذرة الجيدة، وفي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب من جبل سنجار يستطيع المرء أثناء السنوات الخصبة رؤية نبات الشعير النامي في ذلك السهل، مع أنه يقل حالما ينتقل المرء إلى الجنوب حتى يصل إلى الخط الواصل بين الحرة وقلعة شرقاط (وهي موقع عاصمة آشور القديمة).

openkamar.com

وتذكر التوراة شيئاً عن أصل مملكة آشور ولكن باختصار، ويذكر في سفر التكوين رقم (١٠ و١١) أن مملكة نمرود كانت تتألف من بابل وأريشن وأكاد وكلانة وكلها واقعة في أرض شنعار، ومن تلك الأرض هاجر نمرود إلى آشور وبنى نينوى وقلعة كالخ **Calah**، وليس هناك سوى قلة من علماء آثار آشور مستعدين للدفاع عن تلك التفاصيل، ولكن وبالنسبة لآشور فإن الملابسات الرئيسة متفقة مع ما نعرفه من علم الآثار، فشنعار ما هي إلا صورة طبق الأصل عن سومر التي كانت هي الاسم القديم لأقصى جنوب العراق التي يرويها النهران العظيمان دجلة والفرات، ففي سومر بالذات بدأت الحضارة الأولى، وفي حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. ولا نعرف إلا القليل عن المكان الذي أتى منه السومريون فيما لو كانوا حقيقة مهاجرين أم كانوا من أهل البلاد الأصليين، ولكننا نعرف الكثير عن حضارتهم القديمة في جنوب العراق.

وكانت إحدى مراكزهم الثقافية تدعى: أوروك، وإن اسم أيرشين التوراتي هو شكل من أشكال هذا الاسم، وكانت نينوى وكالا عاصمتين آشوريتين في أزمان مختلفة، وكانت الأولى أقدم عهداً من الثانية ولكن مؤسسها المزعوم هو نمرود الذي يُعد أحجية من الأحاجي، وإن اسم آشور (الذي نُقِّل على شكل اسهور أو اسشور أو أسور) ربما انطبق على اسم البلاد ككل، أو على اسم أقدم عاصمة من عواصمها، أو على اسم الإله الرئيسي فيها، مع أن ذكرها في التوراة يدل على البلاد فحسب.

هذا وقد انتشرت الحضارة السومرية في أعالي الفرات ودجلة . وإن المقولة التوراتية حول الهجرة من شنعار إلى آشور ما هي إلا انعكاس للحقيقة التي مفادها: إن أصول الحضارة الآشورية كانت على الأغلب من سومر.

لاحظ استعمال كلمة على الأغلب، فلقد كانت الأحوال الجغرافية شديدة الاختلاف بالنسبة إلى المنطقتين بحيث كان من الصعب انتقال الحضارة السومرية دون تغيير أو تبديل إلى آشور.

ولكن ظهرت عوامل جديدة لعبت دورها، فلقد كانت هناك وسيلة سهلة للاتصال عن طريق وادي نهر الخابور مع سورية ومع منطقة البحر الأبيض المتوسط والأناضول (أواسط سورية) وراء ذلك، ولقد فتحت هذه الطريق في جميع الأزمنة وسائل التواصل فيما بين آشور وأجزاء الشرق الأدنى الأخرى مما سبب حدوث نتائج ثقافية، فنحن نعلم الآن أنه قد حدثت تطورات مرموقة في الحضارة في فترة مبكرة في سورية الشمالية ظهرت آثارها في آشور، إذ لم تكن التلال والجبال المحيطة بآشور من الشمال والشرق خالية من السكان لتشكل حواجز تامة تمنع الاتصال مع الأراضي حولها (وهي التي تدعى الآن تركيا وإيران) وهكذا أصبحت آشور مفتوحة لتلقي التأثيرات ذات الأنواع المختلفة من تلك الجهات أيضاً.

فترة ما قبل التاريخ

إن للمناطق المتاخمة لشمال وشرق آشور أهمية رئيسية بالنسبة للتاريخ البشري ككل فضلاً عن صلتها بتاريخ آشور، وتختص أهميتها على المدى الواسع ببداية القرى والزراعة.

وبالنسبة لأية فترة واقعة قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد، فلا يلزم أن نتحدث عن وجود قرى في أو حول آشور أو في أي بقعة من بقاع العالم، فقد كانت الكائنات البشرية لا تزال عبارة عن مخلوقات نادرة الوجود، فعلى سفوح التلال كانت الكائنات البشرية أقل وجوداً من الأغنام البرية والماعز، بينما قلما كانت هذه الكائنات البشرية ترى في سهول آشور عدا عن وجودها أثناء حملات صيد الحمر الوحشية التي كانت ترعى النباتات حتى بداية القرن العشرين بعد الميلاد.

ثانياً: كانت مثل هذه الكائنات تعيش على صيد الحيوانات وجمع النباتات البرية والبذور والفواكه بحيث لم يكن هناك من جامع يجمعهم بشكل دائم في بقعة معينة، ولا يمكننا إنكار وجود قواعد موسمية بشكل كهوف أو مواقع في الهواء الطلق أو مساكن تعود إلى العهد الأول من العصر الحجري، وهي معروفة قرب السليمانية ورواندوز **Rowandoz** بينما عثر على موقع في الهواء الطلق إلى

الشرق من كركوك، وعلى كل حال فإن عدم وجود الزراعة يُسقط من وجود المستوطنات الدائمة، فهناك موقع على ضفاف الفرات في سورية بُنيت فيه المستوطنات الدائمة قبل أن يبدأ الإنسان في ممارسة الزراعة المبكرة أو تربية الحيوانات، ولقد باتت الخطوة الأولى تجاه الزراعة تُعد أكبر تغيير حدث في أساليب البشر المعيشية نحو عام ٩٠٠٠ ق.م.

وتتراكم الشواهد حول المراحل الأولى لهذا التطور بشكل سريع من المواقع المكتشفة حديثاً في فلسطين وسورية، وفي مواقع ومناطق واقعة شمال وجنوب جبال طوروس، وعلى طول الجانب الغربي لزاغروس، ولقد نمت أنواع مختلفة من النباتات التي أصبحت في أشكالها المدجّنة من الأغذية الأساسية في العالم الغربي في هذه الأيام، وأهم هذه النباتات وبصورة خاصة القمح البري والشعير البري والبقول المختلفة، وقد كانت الأغنام البرية والماعز تتجول في تلك المنطقة نفسها ، وبالتدريج بدأ الناس القاطنون على سفوح الجبال في ممارسة زراعة النباتات المغذية، ولا تزال الأنواع البرية الأصلية للقمح والشعير تنمو في بعض الأجزاء النائية من سفوح التلال، ولقد استطاع علماء الوراثة النباتية تتبع التغييرات ابتداءً من الأشكال البرية إلى الأشكال المعروفة التي وجدت في المواقع المكتشفة.

ولقد وصل تدجين الأغنام البرية والماعز مرحلة مرموقة في نفس تلك الفترة مع أنها لم تكن من المجموعة نفسها من الناس، أو مع أنها ربما لم تكن بدعة مفاجئة، ومن الممكن أن يكون الصيادون قد تعلموا خلال ألف سنة تنظيم حركات قطعانهم والحيوانات التي اصطادوها، وحصر الحدود التي تتجول فيها تلك الحيوانات، وإن توسيع هذا المجال بشكل عقلاني بقصد وضع قطعان المواشي تحت المراقبة سوف يصبح بداية عملية التهجين والانتقاء ، وذلك إما بذبحها أو إطلاق سراح الحيوانات التي لا يمكن ضبطها لتذهب إلى البراري، وهنا تنتج فعلاً سلالات منتقاة للحصول على نوع من الحيوانات سهلة القيادة.

ويشار إلى هذه التطورات أي: ضبط المواد الغذائية نظراً لأهميتها بأنها ثورة العصر الحجري الحديث، ولكن السلم الزمني يجعل اصطلاح الثورة غير

obeikandl.com

مناسب، ولقد انتشرت هذه التغييرات خلال ألوف السنين ، هذا ولم تستطع عملية رعي المواشي وزراعة الحبوب أن تحل محل المصادر القديمة لانتاج الطعام خلال عقود أو حتى قرون، والحقيقة أنه ولمدة فترة تقاس بألوف السنين بدلاً من مئات السنين، فإن عملية الصيد قد بقيت ذات أهمية مرموقة لأجل زيادة كميات المواد الغذائية.

وتنعكس هذه الآثار في الحقيقة التي مفادها أن عملية الصيد بقيت عبارة عن نشاط شعائري مهم يُظهر حق الملوك حتى نهاية الإمبراطورية، بينما كانت عملية صيد الأسماك (التي تختلف عن عملية تربية الأسماك) شكلاً من أشكال الصيد التي لا تزال من المصادر الرئيسة للحصول على الطعام.

ومع ذلك فقد أصبح إنتاج الطعام الطريقة السائدة للمعيشة في سفوح التلال الملاصقة لآشور، وحالما حدث هذا فقد حدثت حتماً نتائج أبعد تأثيراً، ولشدة التناقض فقد اشتملت هذه النتائج على أمرين متناقضين الاستقرار والهجرة، فمن جهة أولى فقد ربطت الأعمال الزراعية (مع أنها لا تشمل تربية الأغنام والماعز) الأفراد المختصين لخدمة مساحة خاصة من الأرض، وكنتيجة لذلك نمت المستوطنات الدائمة - بشكل قرى وبعدها مدن- ومن جهة أخرى فإن تقنيات التدجين الجديدة كانت تعني أن لا ينحصر الإنسان في موطن معين عند عمله في تربية الأغنام والماعز، إذ من الممكن إطعام هذه المواشي وتربيتها في أي مكان مناسب حيث يوجد الكلأ المناسب.

وكذلك فإن محاصيل الذرة من الممكن إنماؤها بعيداً عن المستوطنة الأصلية حيث توجد التربة مع كميات من المطر كافية، وهكذا لم يعد الناس مرتبطين بنوع خاص من الأراضي والمناطق، فأصبح استعمار السهول الآشورية ممكناً، وهكذا نشأت في هذه الطريقة أولى القرى في تلك المنطقة.

ولقد كانت لهذه التغييرات نتائج مرموقة على كل من السكان البشر وعلى المؤسسات البشرية الاجتماعية، فقد أصبح الإنسان والحالة هذه قادراً على توسيع مدى نفوذه لاسيما بعد تطوير أدوات الري، فأصبحت منطقة معينة من الأرض

قادرة على إعالة أعداد أكثر من البشر بعد إعطاء القدرة لعدد أكبر من السكان على استثمار مناطق كاملة من المستوطنات، وهكذا فعند ازدياد عدد السكان في مستوطنات بعينها توجب إيجاد مؤسسات اجتماعية قادرة، بينما أصبحت زيادة عدد المستوطنات قادرة على جلب نوع من البنى التحتية، وعلى تنظيم قواعد السلوك عند هؤلاء، وذلك بقصد تقليل عدد الخصومات.

وعندما امتلكت العائلات أو المستوطنات المؤلفة من مجموعات من العائلات مخازن القمح وقطعان المواشي فقد أصبح من الواجب أن يستطيعوا حماية أنفسهم ضد المجموعات الأخرى من البشر الذين كانت تعوزهم تلك المخازن والقطعان، وكان هؤلاء ينظرون بأعين فارغة جائعة إلى تلك الممتلكات، وهذا ما أدى إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية للدفاع والحرب، وبهذا نجد أن تهجين النباتات والحيوانات قد عدَّل وأملى أشكالاً في المجتمعات الأولى.

وتبع ذلك تغييرات أخرى، فقد دعت الحاجة عندها لاستخدام الأدوات والأواني لخزن الفائض من الطعام، وكان هناك عدة مواد متواجدة تحت الطلب ابتداء من الحجارة التي كان من الممكن اقتلاعها حتى القصب المجدول، ولكن سوف تظهر مادة مناسبة بشكل أكثر لتستعمل بشكل عام حالما يتم اكتشاف الحقيقة التي مفادها أن الغضار إذا تعرض للنار فإنه يصبح قاسياً ضد الماء وأطول دواماً، هذا وقد استعمل الإنسان النار منذ عهد بعيد قبل وقت طويل من تدجين مواد الطعام والحيوانات، ولكننا لا نعلم متى حدث استعمال النار في صنع الفخار، فمن المحتمل أن ذلك الاكتشاف قد حدث من خلال احتراق القصب أو حاويات القصب من السلال المبطنة بالغضار، وهكذا بدأ عصر الفخار بهذه الطريقة.

ولقد تبع ذلك عدة نتائج، فقد أدت الحاجة إلى وجود نارٍ حامية من الممكن السيطرة عليها، والتي تنتج درجات حرارة عالية وذلك لانتاج الأواني الفخارية الجيدة، أدى ذلك إلى تطوير صنع المواد القادرة على إنتاج حرارة هائلة، وهذا ما

أعطى الوسيلة التي استطاعت بها الأجيال القادمة القدرة على صهر المواد المعدنية الخام.

وتأتي الشواهد الأولى على هذه التطورات في منطقتنا من مواقع زاوي وتشيمي وشانيدار، فالموقع الأول على بعد ١٥ ميلاً إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً من سهل الموصل قد حدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون بواسطة الأشعة السينية بحوالي (٩٠٠٠) عام ق. م، وكانت المساكن هناك عبارة عن أكواخ دائرية بُنيت جدرانها من جلاميد النهر، وتظهر الأدوات الحجرية أن بعض المنتوجات النباتية قد زرعت لاستعمالها كطعام، مع أننا في الوقت الحاضر ليس لنا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كانت هذه المنتوجات من الحبوب أو حبوب البلوط أو الجوز أو المكسرات الأخرى المتوفرة في تلك المنطقة.

وأما الصيد فلا يزال المصدر الرئيس للحصول على الطعام مع أن هناك بقايا الأغنام وعظامها تدل على ترويض الأغنام مما يظهر أن تربية الماشية قد بدأت.

وأما (شانا دار) قرب رواندوز فهو عبارة عن كهف يعود إلى نفس فترة زاوي تشيمي، وهناك إمكان اتصال هذين الموقعين وذلك لأن شانيدار من الممكن أن تكون الملجأ الشتوي للأشخاص الذين كانوا يقضون الصيف في زاوي تشيمي، وهذا الموقع مهم بالنسبة لنا لكونه يعطينا فكرة عن الاتصالات السائدة، وقد وجد هناك على السبج وهو صخر بركاني زجاجي قاسٍ جذاب يستعمل في عمل أدوات الزينة، ولما لم يكن هناك أي مصدر للحصول على ذلك الحجر أقرب من منطقة بحيرة فان الواقعة على بعد أكثر من مئة ميل إلى الشمال فوق أراضٍ جبلية صعبة لذلك فلا مانع من وجود نوع من التجارة والصلات التجارية فيما بين هذه المناطق.

نستطيع تتبع عمليات التطور في ضبط مواد الطعام من مواقع تعود إلى فترات مُتأخرة، ففي الحافة الشمالية لآشور عند جارمو إلى الشمال الشرقي من كركوك كان هناك مستوطنة تبلغ مساحتها من ثلاثة إلى أربعة فدادين قد احتلها الآشوريون ابتداءً من ٧٠٠٠ سنة ق.م فصاعداً، ويميل علماء الآثار لأن

يكونوا أكثر كرماً بالنسبة إلى الزمن وهم يفكرون أن هذا الزمن قصير بعد بداية عصر الزراعة، ولكن علينا أن نلاحظ أن فترة هذا التطور قد دامت مدة تقرب من مدة عصر المسيح حتى يومنا هذا، وقد كانت جارمو قرية صغيرة تحتوي على عشرين بيتاً أو ما يقارب ذلك وبها من السكان ما يقدر بمئة أو خمسين نسمة، وقد زرع هناك نوعان من القمح (يعرفان بالأمير والابن كورن) ونوع من الشعير وقد دلت بعض الشواهد على وجود ماعز مدجن وخنازير وكلاب في جارمو، ولكن من الغرابة عدم وجود أغنام مدجنة وذلك بشواهد من زاوي تشيمي، ولو كان عدم وجود هذه الشواهد مجرد حادث اكتشاف فإن المفارقة مع زاوي تظهر وجود عدة طفرات فجائية عند تدجين أنواع مختلفة من الحيوانات مع افتقار أهالي جارمو للأغنام.

أقدم القرى الأولى

وجدت أقدم أنواع المستوطنات في سهول آشور وسميت باسم موقع أم الدباغية على بُعد ١٥ ميلاً إلى الغرب من الحدود، أو ما يقارب ذلك على الحدود الجنوبية القاصية للمنطقة حيث من الممكن الزراعة بعد هطول الأمطار، وهناك اختلاف حول ما إذا كانت هذه مستوطنة زراعية، فهناك بقايا بيوت تدل على أن هذا الموقع كان مسكوناً باستمرار ولكن ليس من أول السنة إلى آخرها، ولكن العنصر الأساسي في حياة مستوطنات أم الدباغية كان الصيد مع وجود الهدف الرئيس وهو حمار الوحش، وهناك عدة شواهد تشير إلى هذا الاتجاه.

وتظهر الرسومات الجدارية في البيوت مشاهد الصيد وتشمل البنايات صفوفاً من القدور المستعملة لخزن الجلود (مع أن هذا الاستعمال لم يثبت تماماً) وقد وجد نحو سبعون في المئة من عظام الحيوانات في الموقع وكانت عظام حمر الوحش، ومعظم العظام الأخرى كانت عظام غزلان، مع أن هناك بعض عظام حيوانات مُدَجَّنة.

obeikandi.com

وهناك دلائل على تقنيات الصيد التي كانت تستعمل هناك وهي عبارة عن ألوف من كُرات من الغضار كانت تستعمل في المقاليع، ولهذا فمن الممكن لذلك أن لا يكون موقع أم الدباغية هو مستوطنة زراعية بل قاعدة للصيد، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه من المظنون أنها بُنيت من قِبَل شعب متحرك على سطوح التلال يريدون استثمار الحمر الوحشية التي كانت متواجدة في الجزيرة (وظلت حتى استنفذت في القرن العشرين).

ولقد وجدت مواقع لثقافة أم الدباغية إلى الشمال تجاه جبل سنجار، وما لم نُعدّ أم الدباغية نفسها مستوطنة زراعية، فإنها إحدى تلك المستوطنات، ويعد تل سوتو ممثلاً لأقدم مستوطنة زراعية مبكرة في السهول الآشورية مع وجود أول دليل مؤرخ من قبل الحفريات الروسية الذي يعود إلى حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م، هذا ويعد تل سوتو من المستوطنات (وهي القرى الصغيرة) الخلفية التي تكمن وراء بعض التطورات في أمكنة أخرى، مثل كافال هويوك في الأناضول حيث نمت بلدة مساحتها نحو اثنين وثلاثين فداناً أو في أريحا في فلسطين.

ولقد سُبقت أول مستوطنات معروفة في آشور من قِبل بعض القرى في فلسطين التي سبقتها زمنياً بمدة ألفي عام أو يزيد، وكذلك في الأناضول وإيران، ولكن ربما كان هناك بعض القرى المتقدمة والأقدم عهداً في آشور وهي أقدم من تلك القرى التي ذكرناها، لأنه من الواجب أن نتذكر أن معلوماتنا محدودة ومعرضة لضغوط من قبل البحوث في علم الآثار، مثلاً تقع مدينة أربيل في سهل تكثر مياهه، يعد الآن أفضل منطقة لزراعة الذرة في العراق، وهو على بعد مسيرة يوم واحد عن المناطق التي يمكن أن توجد فيها حتى الآن الحبوب البرية، والتي لا تزال نامية هناك، وإنه لتخمين معقول قولنا: إن أربيل كانت إحدى أقدم المستوطنات الزراعية الدائمة، ولكن أربيل كانت مدينة ناجحة جداً بحيث تعرضت للاحتلال باستمرار منذ نشوئها.

وهذا ما أنتج وجود روابٍ أو تلال كبيرة ضخمة (لا تزال مسكونة) وكانت المسافة عميقة من قمة التلة حتى الأرض البكر بحيث أصبح من المستحيل إجراء

أي حفريات من مستويات باكرة، وعادة ما يسمِّي علماء الآثار بعض التجمعات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذه الكلمة أو الرطانة التي يفضل علماء الآثار استخدامها عندما يعنون المرحلة الثقافية) باسم ذلك الموقع الذي ثبتت معرفته لأول مرة، ولكن هذا العمل الملائم ربما كان مضللاً للرجل العادي نظراً لأنه يشجِّع الانطباع بأن تلك المرحلة الثقافية كان لها ارتباط وثيق مع الموقع الأول الذي سُمِّيت باسمه، ولكن غالباً ما أصبح حامل الاسم عبارة عن مستوطنة صغرى واقعة خلال منطقة صغيرة جداً، وهكذا حالما نستمر نحن الآن بالإشارة إلى مراحل ثقافة (تل حسونة وتل حلف) فلا ينبغي أن نفكر بها ونعدها أول المتطورين بالنسبة للمواقع التي تحمل تلك الأسماء.

تل حسونة

بعد تلك البدايات المُمَثلة بتل سوتو، فإن أول نموذج رئيسي للمستوطنات الزراعية المعروفة في السهول الآشورية هي ما تدعى (بالحسونة) وهذا الاسم مأخوذ من اسم تلة ترابية صغيرة واقعة على بعد اثنين وعشرين ميلاً جنوب الموصل، ولقد أظهرت الحفريات بعض المراحل الثقافية التي تعود في تاريخها في الوقت الحاضر إلى بضعة قرون واقعة بعد عام ٦٠٠٠ ق.م، وقد حدثت تلك الحفريات في الجزيرة إلى الشرق من أربيل.

وفي مجمع حسونة كانت الزراعة بالتأكيد من النشاطات الرئيسية حيث وجدت أشكال من الشعير وعدة أنواع من القمح، ولقد وجدت عدة أدوات مطبخية نموذجية في حسونة تشير أيضاً إلى استعمال الحبوب على مقياس واسع، فقد وجد نوع غريب من الصحون المسطحة ذات سطوح داخلية مثقبة كانت تستعمل لفصل الحبوب عن الحسك، وقد كان وجود الحيوانات المدجنة التي ظهرت عظامها والتي برهنت على وجود الأغنام والماعز والخنازير والأبقار، وإن وجود فلكات المغزل تشير إلى وجود إنتاج الأقمشة، ويشار إلى التجارة في مسافات طويلة بوجود حجارة الأولسيديان وبعض الأحجار الكريمة الثمينة، ولما كان أقرب مصدر

obeikandi.com

لبعض هذه المواد يبعد نحو مئتي ميل بعيداً عن الجبال، وسواء كانت هذه المواد قد حملها التجار المسافرون أو أنها انتقلت من مستوطنة إلى مستوطنة، إلا أن ليس لدينا أي واسطة لمعرفة ذلك، هذا وإن الاتصالات مع أي من هذه الأنواع ربما أسهمت في انتشار معرفة التكنولوجيا، مثلاً الإنتاج الزراعي أو وسائل البناء، وأعمال الري وصنع النحاس، ولقد وصل صنع النحاس إلى حسونة ومستوطناتها من أقصى الشمال.

وبحسب معرفتنا في الوقت الحاضر فإن أول استعمال للنحاس الذي كان يُطرق وهو بارد ويؤخذ من النحاس الوطني لعمل الأدوات الصغيرة، وحدث ذلك فيما بين عام ٧٥٠٠ و٦٥٠٠ ق.م في سايونو قرب ديار بكر، في جنوب شرقي تركيا وهذه كانت قريبة من السهول الآشورية ومن المصادر الآشورية للنحاس، ولقد حدثت عملية صهر النحاس من خاماته في كماتال هويوك الواقعة في أقصى غرب تركيا وربما كان ذلك بعد نحو ألف عام، فقد عرف استعمال النحاس بما فيه صهره مع أن ذلك كان على مقياس ضيق، وكان ذلك في أحد مواقع حسونة.

ولما لم يكن هناك أي مصدر من مصادر خامات النحاس في أي مكان قرب الموقع المشار إليه، فإنه من الواجب أن تكون آشور قد نالت قصب السبق بالنسبة للتقدم إلى العصر المعدني، وذلك بالاتصال مع الشعوب الواقعة في أقصى الشمال في سفوح تلال طوروس.

لا نعلم إلا القليل عن مجتمع حسونة ولكن هناك أمراً نقوله بكل ثقة وهو: إن بنيتهم الاجتماعية كانت مؤسسة على العائلة، وقد استنتجنا ذلك من كون بيوتهم عبارة عن مساكن صغيرة منفردة ولم تكن بنايات جماعية، ونحن نعلم أيضاً أنهم كانوا ملتزمين بالملكية الخاصة، نظراً لأنهم كانوا يستعملون أختاماً كان المقصد الأساسي منها تحويل الملكية.

وكانت مستوطنات حسونة محددة في المناطق ذات الهطول الكافي للأمطار اللازمة لنمو الحبوب، ومع ذلك فكان هناك في الجنوب، حيث لم يكن هطول المطر كافياً، أقوام آخرون قد طوروا أساليب بدائية للري وتدعى هذه المجموعات

باسم سامراء، ويختلف علماء طبقات الأرض فيما إذا كان هذا الاسم متميزاً عن حسونة أم لم يكن، وإن أحد هذه المواقع الذي حُدد تاريخه عن طريق فحص الكربون بالأشعة السينية (أوالتحديد الزمني) كما يحلو لعلماء الآثار أن يسموه عندما يسمحون للمرء أن يفترض بأنهم أصبحوا يقدمون تاريخاً مطلقاً) حُدد تاريخه بحوالي ٥٥٠٠ ق.م بالنسبة لأقدم مرحلة، وبعد ذلك حدثت تطورات معتبرة فأصبحت إحدى المستوطنات السامرية ذات اتساع كبير بحيث جاز لنا أن ندعوها بلدة صغيرة.

تل حلف

لقد طغى على مجموعات حسونة المحصورة في شمال العراق نوع من الثقافة الأخرى والتي انتشرت وعرفت باسم حلف، وكان انتشار حلف واسعاً ليس جغرافياً فحسب بل زمنياً أيضاً، إذ إنه غطى نحو ألف عام تقريباً ابتداء من منتصف الألف السادس فصاعداً.

ويقسم علماء الآثار هذه الثقافة إلى ثقافة مبكرة وثقافة متوسطة وثقافة متأخرة حلفية، ويشيرون إلى تطورات مرموقة حدثت بين ثقافة وأخرى، وكان لهذا الوضع علاقة بأغراضنا الحالية، فهو يدل أن ثقافة حلف لم تكن مجلوبة بشكل جاهز من أي مكان آخر بل إن المستوطنين بنوها بالتدريج وبنوا طريقة حياتهم بأنفسهم بشكل ميداني، ولقد ثبت هذا الاعتقاد وهو أن مستوطنات حلف لم تكن وليدة حسونة أو سامراء وذلك لوجود الفروق الظاهرة في أساليب صنع الفخار، وهناك شواهد إضافية تدل على أصول ثقافة حلف المستقلّة، وهي وجود الظواهر المعمارية التي تبين أن أبنية حلف كانت ذات أشكال تشبه خلية النحل مرتكزة على أسس حجرية، ولم يكن هذا الشكل معروفاً في أي ثقافة أخرى قبل التاريخ، ولكن فائدة هذه الأبنية غير معروفة وغير أكيدة، مع أن بعض العلماء يفسِّرونها بأنها نوع من الأضرحة، ولكن ومهما كان عملها أو فائدتها،

obeikandl.com

فإن براعتها تظهر أن شعب حلف الأوائل كانوا من القادمين الجدد إلى آشور، وتثبيتاً لهذا القول وجود بعض مستوطنات حلفية على أرض بكر.

إن أول موقع حلفي معروف في آشور هو الأرباشية على مشارف نينوى القديمة، وهي الآن جزء من الموصل الشرقية، ولكن هذه المجموعات ككل بدأ انتشارها تقريباً من مرسين في كليكية عبر سورية وآشور حتى حوالي السليمانية في كردستان شمالاً إلى ديار بكر وبحيرة فان، وهناك تفسير ممكن لهذا التوسع هو أنه كان يعكس نجاحاً زراعياً وزيادة في عدد السكان، نظراً لأن كل ظاهرة وجود أرض زراعية خصبة واقعة حول مستوطنة بعينها قد فسرت بكونها ناتجة عن ارتفاع عدد السكان، وهكذا كان أولئك الذين لا يملكون أرضاً يرحلون ليؤسسوا مستوطنات جديدة في أمكنة أخرى، وأصبح المستوطنون في السهول الآشورية جزءاً من المجموعات المترابطة من الشعب، ولكن هذه الفكرة لا تزال مجرد تخمين ولم تثبت بعد كحقيقة، أي: من الممكن أن تكون الثقافة المشتركة الواسعة الانتشار بدلاً من ذلك قضية روابط تجارية واقعة فوق هذه المساحة المرموقة من الأرض.

هناك بعض المظاهر في المستوطنات المتأخرة في حلف تعكس تحسُّناً متميزاً في نوعية الحياة، مثلاً: أصبحت الأواني الفخارية المزخرفة ذات جمال لا بأس به، ووجد هناك حُجب سحرية ولوحات مزخرفة وخرز محفورة من الحجارة، وكانت الأعمال النحاسية متطورة، وكان في الأرباشية شبكة من الشوارع المرصوفة بالحجارة، وذلك خدمة للسكان في الطقس الماطر حيث يكثر البلل بالماء، وكان فيها ورشة لعمل الأدوات الفخارية مما يدل على تطور الصناعة والتخصص، ويظن بعض العلماء أنه كان في الأرباشية صانعو فخار متخصصون يصنعون البضائع الضرورية للقرى القريبة من نينوى، وتبقى هذه الفكرة مجرد تخمين في الوقت الحاضر دون وجود أي شاهد لتأييدها، ولكن هناك بالتأكيد إمكان وجود مدن كبيرة قرب نينوى وفي أمكنة أخرى (ربما أربيل) خلال عصر حلف.

لقد لاحظنا وجود التجارة إلى جانب الزراعة الناجحة وكونها عاملاً ممكناً في ازدياد ازدهار حلف، وربما كانت العلاقات التجارية لشعب حلف راجعة إلى الزمن الواقع قبل وصول هذا الشعب إلى آشور، وهناك اقتراح مفاده أن المنطقة التي أتى منها مستوطنو حلف كانت واقعة بين السهول الآشورية وبحيرة فان، وأنه كان هذا الشعب يمارس التجارة في أوبسيديان حيث كان هناك مصدر للتجارة إلى الغرب من بحيرة فان.

وإذا اعتبرنا هذه الفرضية فإن شعب حلف الذي استقر في سهول آشور كان من الممكن أن يحتفظ بعلاقاته التجارية مع المناطق الشمالية وبهذا يحصلون على الثروة كوسطاء في تجارة أوبسيديان، وهناك عامل آخر تسبب في ثراء حلف وهو التجارة بالمنسوجات ويظهر هذا الرأي من وجود بعض نواحٍ بارزة في الأواني الفخارية من الممكن أنها قد نُقلت عن المنسوجات. فإذا كانت المنسوجات حقاً جزءاً مرموقاً من تجارة حلف فإن هذا ربما أثر على أساليب الحياة بشكل دائم في تلك المنطقة، وأسهم في زيادة أهمية تجارة المنسوجات في آشور فيما بعد.

ولكن ما هي أهمية هذه المراحل الثقافية في ما أصبح فيما بعد يعرف باسم آشور، إذ إنه من السخف أن ندعو ونعد شعوب أم الدبجية وحسونة وحلف أنهم هم الآشوريون الأوائل، ولكن ومن جهة أخرى فإنه من السخف أيضاً أن نظن بأن هذه الشعوب قد اختفت أو ذابت من على وجه الأرض ولم تترك أي أثر من الخلف أو التراث الثقافي، وهكذا يبقى الاحتمال الذي مفاده أن هؤلاء المستوطنين الأوائل كانوا بالإضافة إلى كثير من الطاقات التي أسهمت في خلق الآشوريين فيما بعد (مهما كان الزمن بعيداً) وأن بعض مظاهر الحياة التي قدموها قد استمرت.

عبيد

لقد بدأ نوع جديد من الفخار في الظهور في آشور بعد حلف وقد انتشر هذا النوع في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

إنني مدين بالاعتذار السريع لأني بدأت بموضوع جديد بالحديث حول الفخار بدلاً من الحديث عن الشعب والناس. ولكن مهما ظهرت القطع الفخارية بشكل ممل، إلا أننا يجب أن نستعمل الشواهد الفخارية لأنها تمثل علامة تفسر وجود مجموعات ثقافية خاصة. وإن الثقافة الجديدة (أو المجموعات) التي تتميز بوجود نوع جديد من الفخار تدعى ثقافة عبيد. ولا شك أن كلا الفخار والثقافة المرافقة تطورت في أول الأمر في جنوب العراق في اقتصاد مرافق للري. وأن عدد وحجم مجموعات التلال التي تدل على وجود مستوطنات قديمة تظهر وجود زيادة لا بأس بها في عدد سكان جنوب العراق، وذلك بسبب الهجرة من جهة، ومن جهة أخرى الزيادة الطبيعية في عدد السكان الأصليين نتيجة لازدهار الزراعة التي أصبحت ممكنة عن طريق أدوات الري الفعالة.

ولقد انتشرت ثقافة عبيد التي كان الفخار عاملاً في وجودها انتشاراً واسعاً ابتداء من الخليج الفارسي إلى سورية ولا يمكننا القول بالتأكيد إن ذلك قد حدث بسبب الانتشار الثقافي أو أنه قد ترافق مع الهجرات الحقيقية، مع أن زيادة الفخار في حلف وعبيد في بعض المواقع يصوب الرأي الأخير.

من كان شعب عبيد ياترى؟ إن هذا سؤال خلافي جدلي. ففي جنوب العراق وجدوا حلقة واحدة في سلسلة المرتحل الثقافية تدعى أحياناً أريدور أو حاجي محمد أو عبيد، أو أوروك أو جمدت نصر مع أن الميول المتداولة بين علماء الآثار اعتبار الاسمين الأولين من هذه الأسماء هما الأسماء أو الوجوه الأولى لعبيد، وأن جمدت نصر هي آخر وجه من وجوه أوروك، وقد استعملنا هذا الاصطلاح البسيط هنا. إذ إن فترة أوروك متصلة بالسومريين في الأزمنة التاريخية، وفي هذه الفترة نجد بعض البدع المؤثرة مثل نشوء المدن أو فن المعمار التذكاري. ومع ذلك يواجهنا الآن الجزء الأعوص من المعضلة، فهل كانت ثقافة أوروك نتيجة لقدوم (أو إصرار في اظهار النفس) السومريين الذين يمثلون مجموعة عرقية جديدة ذات ميول جديدة، أو هل هي تمثل قفزة نوعية إلى الأمام تمثل تطوراً مستمراً. ففي الحالة الأخيرة فإن شعوب

المراحل السابقة في جنوب العراق وعبيد في جميع مراحلها من الممكن أن نعدها من الشعوب السومرية الأصلية أو الأولى.

وإن زيادة السكان المرتبطة بعبيد تقدم لنا إمكان دخول نفوذ جماعة عرقية جديدة حتى في الحالة الأخيرة. ويبدو أنه من المؤكد أن هناك لغة غير لغة السومريين التي كانت سائدة في بداية الألف الثالثة كانت معروفة هناك قبل عام ٣٥٠٠ ق.م، وذلك من أسماء الأمكنة التي ظلت باقية في جنوب العراق. وهذا يشير إلى أن السومريين كانوا فعلاً قادمين جدداً خلال الألف الرابع أو أنه على الأقل كانوا مجموعة متميزة بدأت تستغل نفوذها الثقافي، وجعلت هذا النفوذ معروفاً حينذاك، ولكن هناك شواهد ملموسة تؤيد وجهة النظر التي مفادها أن مجموعة عرقية خاصة قد لعبت دوراً مرموقاً في خلق ما يدعى بالثقافة السومرية، مع أن هذا الرأي لا يوافق عليه علماء الآثار الشباب الذين عدوا هذا الرأي شوكة في حلوقهم، وعدوا أنه من الظلم اعتبار تفوق أي مجموعة عرقية على أخرى.

فهل كان العبيديون سومريين أصليين أم لم يكونوا؟ فقد كان وصولهم الطارئ إلى السهول الآشورية (أو بدلاً من ذلك انتشار نفوذهم الثقافي) قد جلب تطورات مهمة وخصوصاً في التجارة. هذا وإن اختفاء ثقافة حلف قد رافقه الانهيار في شبكة تجارتهم التي كانت واسعة الانتشار. وربما كانت هذه التجارة سبباً لهذا الانهيار. ولكن الاتصالات التجارية الواسعة التي ميزت نموذج الحياة الذي طغى على آشور فيما بعد، ولكنه تطور مرة ثانية في فترة عبيد الأخيرة. وهذا كان يشمل الروابط مع شمال سورية بالنسبة للخشب وفي المناطق الجبلية بالنسبة للنحاس الذي بدأ يلعب دوراً هاماً بعد أن تطورت تقنيات صب النحاس وسكبه في قوالب. وإن اعتماد أهالي ما بين النهرين على هذه المواد الخام المجلوبة من تلك المناطق. أصبحت فيما بعد العامل المهم في استراتيجية آشور الاقتصادية والعسكرية في المستقبل.

فجر التاريخ

لم تكن التطورات خلال بلاد آشور خلال فترات عبيد وما تلاها أي بين عام ٤٥٠٠ وعام ٢٥٠٠ ق.م واضحة بالقدر الذي نتمناه. إذ إن زيادة حجم وكثرة المواد المعاصرة الآتية من أقصى الجنوب قد أبرزت هذه الحقيقة. ففي جنوب العراق تُظهر الفترات التالية للعبيدية المعروفة أثرياً باسم أوروك والسلالات الملكية الأولى، تظهر تطورات جديدة من نوع رائع ملفت للنظر. وهنا نقابل بداية تلك المجتمعات المعقدة التي ندعوها المدن ذات البنايات الضخمة للهياكل والاختصاصات الفائقة التطور والكتابة، أي جميع النواحي البارزة والمعالم المرافقة للسومريين. وسرعان ما بدأت هذه التطورات بالتأثير على أمكنة واقعة في خارج جنوب العراق. مثلاً في موقع يدعى حبوبه الكبرى الواقعة على الفرات في سورية. وهناك خرائب مدينة رئيسة عاشت قبل عام ٣٠٠٠ ق.م وهي تظهر روابط لا يتطرق إليها الشك مع فترة أوروك في جنوب العراق. ولقد انتشرت تطورات أوروك والسلالات القديمة في أعالي نهر دجلة مع أن تأثيراتها لم تظهر في آشور مدة عدة قرون، وبسبب هذا التخلف أو التأخر الزمني علينا أن ننتبه عند إعادة تقديراتنا، وليس لدينا ما يبرر ملء شواهدنا القليلة النادرة حول آشور خلال هذا الزمن وأخذها من المعلومات الوافية التي تشمل في حوالي نهاية هذه الفترة والوثائق المكتوبة التي لدينا والمختصة بسومر.

ومع ذلك يمكننا رؤية بعض تلك الاتجاهات التي كانت تتطور بها الأشياء في آشور خلال هذين الألفين من السنين. فقد أضحت المستوطنات أكبر حجماً، لتصبح مدناً حقيقية وبعضها كان محاطاً بالأسوار لحمايتها. والاستنتاج الواضح كان خطر تعرض هذه المدن للهجوم المركز من الخارج الذي أظهر أن الحرب أصبح من معالم الحياة، وكان لهذه الملابسات تأثير على البنى الاجتماعية. فقد كانت عمليات تحصين المدن تشمل التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي، وهذا يلزم ظهور زعماء الحروب القادرين على القيام بمهام القيادة الناجحة، وكل شيء ضروري في مصطلحات التنظيم الاجتماعي وترتيب الطبقات الاجتماعية. ولقد وجد

obeikandi.com

أحد الأختام من تلك الفترة وهو يصور أحد مظاهر الحرب، أي: مثلاً صف من الأسرى، وإن الاستيلاء على الأسرى في الحرب يمثل بداية مؤسسة العبيد والعبودية، مع وجود مجموعة اجتماعية محرومة من الحقوق، وإن تفسيرات هذا الختم لا يتطرق إليها الشك، ومع ذلك فهناك دلالات أخرى عن تطور الاختلافات الطبقية. وهكذا بدأت البنايات المخصصة للعبادة تظهر وكان بعضها يؤلف مساكن تخص أقلية من الناس ذات ثروات أو قوى سياسية أو كليهما، وكانت القبور تقدم صورة مشابهة نظراً لأن قلة من هذه القبور كانت تحتوي مدافن فخمة لم تكن متوفرة للكثيرين.

ولكن التطور في بناء الأبنية الدينية غالباً ما يدل على تطور في المجتمع ككل. وهكذا فإننا نرى في معظم المواقع الآشورية خلال تلك الفترة المعابد التي تظهر زيادة متواضعة في الثروات والحجموم. وهذا مناقض للوضع الذي كان سائداً في سومر المعاصرة. فهناك ظهرت أبنية المعابد الملفتة للنظر بحيث أصبحت هذه في أواخر الألف الرابع النقاط الرئيسية التي تدل على الحياة الاقتصادية فضلاً عن الحياة الدينية. ولكن رغم هذه التناقضات العامة، كان هناك بعض الأمكنة داخل منطقة آشور حيث كان للنفوذ السومري تأثيره في بناء المعابد، وهناك اثنان من هؤلاء وجدت في تل بارك في أعالي الخابور وتيب جاورا إلى الشمال الشرقي من نينوى، فضلاً عن سلسلة من المعابد الرائعة التي تشبه مثيلاتها في الجنوب شبهاً تاماً. وفي الواقع أنها قد تأثرت بهؤلاء ولكن يبقى ذلك وضعاً شاذاً، وعلى العموم كانت المعابد خلال هذه الفترة أقل بهاءً من القلاع، وهناك تفسيران لهذه الظاهرة. أحدهما أن الزعماء العلمانيين كانت لهم المنزلة الأرفع في المجتمع تفوق منزلة الكهنة، والتفسير الثاني هو أن زعماء الشؤون العلمانية هم نفس زعماء الكهنة، وأن رجال الطبقة الحاكمة قد استعملوا الأبنية العلمانية مراكز للإدارات الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك لم يكن هناك من حافز لنمو فكرة أبنية المعابد البارزة اللافتة للانتباه.

obeikandl.com

ولقد استمر تطوير التجارة، ويظهر هذا بوجود الأشياء المستوردة في القبور مثل الودع الآتي من المحيط الهندي، أو الأشياء المصنوعة من المواد المستوردة مثل العقيق الأحمر وحجر الجمشت أو اللازورد ومصدر الأخير هو أفغانستان. وهناك شاهد آخر على تقدم التجارة، إذ تظهر الأختام من فترة أوروك ومن تيب جاورا صلات الود والمحبة مع أولئك السكان من مستوطنتين معاصرتين في إيران، وقد قيل إن هذا يعني ويدل على نفوذ متبادل. ولما كان الغرض الرئيسي من الأختام هو وضع علامات على البضائع، فيصبح هذا دلالة قوية على سفر التجار من آشور إلى إيران، ويؤيد هذا الرأي أن تيب جاورا قد انحطت وتأخرت أهميتها في أواخر عصر أوروك مع حدوث توقف في العمل في إحدى المواقع الإيرانية المذكورة، وهي جيان ويمكن أن نعزو كلا هاتين الحقيقتين إلى توقف الطريق التجارية التي كانت قد تسببت بازدياد أهمية هذين المكانين.

وتشير الشواهد من تل براك أنه قد أضيف إلى المعبد بعض النحاتين وصائغي الذهب، وهذا يدل على أنه قد بدأت في آشور نماذج منتشرة للتخصصات المهنية، ومع ذلك ينبغي علينا الحيطة في استنتاجاتنا من هذه الشواهد نظراً لأن تل براك كانت خاضعة لنفوذ الجنوب السومري فلم يكن من الضروري أن يكون هذا منطبقاً على بقية آشور، ولكي نرى كيف حدثت المرحلة التالية من التطور في آشور فإننا نحتاج لدراسة خلاصة مقتضبة للحوادث في جنوب العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق. م.

التطورات في سومر

بعد ظهور المدن ظهر في سومر وبمحاذاة الفرات وإلى حد ما بمحاذاة ديالا عدد من أول المدن، كانت مستقلة ولكنها متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً، وظهرت سلالات وراثية ولكن الدول الغنية والقوية مثل كيش وأوروك بدأت تمارس بعض أشكال الحكم على الآخرين، واتخذ أولئك الحكام لقب الملوك (ومعناها

الحربي الرجل العظيم) وإن الزمن الذي علا فيه شأن هذه التنظيمات السياسية يدعى فترة السلالات الأولى (مع تقسيمات ثانوية متعددة).

وفي أثناء فترة السلالات الأولى ظهر بعض الأقوام الذين أثبتوا وجودهم بالتدريج إلى جانب السومريين، ولكنهم كانوا من عناصر ثقافية أثنية أخرى، وكانت هذه هي المجموعة الناطقة باللغات السامية هم الذين نعرفهم باسم الأكاديين، وكان أصلهم وموطنهم في الصحراء السورية إلى الغرب من منطقة ما بين النهرين، ولقد وصلوا بعد عمليات طويلة من الهجرة (وربما بدأوا من فترة سابقة لعهد السومريين) فلم يبدؤوا بغزو حربي مفاجئ.

أسرة أكاد

في أوائل القرن الرابع والعشرين ق. م استطاع أحد أولئك الأكاديين المعروف باسم سرجون الذي كان يعمل أولاً في خدمة أحد ملوك السلالة الرابعة في كيش، استطاع أن يحصل على الاستقلال، وبنى لنفسه عاصمة تدعى أكاد وسرعان ما استطاع سرجون أن يوقع الهزيمة في جميع الحكام المحليين، فأصبح ملكاً لجميع أرجاء ما بين النهرين الجنوبية، ويمكننا أن نحدد تاريخ حكمه ما بين (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م) مع أن بعض العلماء الآخرين يخالفوننا التقدير بعدة عقود على أساس اختلاف التقديرات والحسابات.

وإن أهمية كل ذلك بالنسبة لآشور هي أن سرجون أظهر نفسه كأول رجل أمبريالي، فقد قام آخر ملوك السلالات السومرية بهجوم على مناطق أعالي الفرات وربما وصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أن سرجون تابع ذلك التوسع بقيامه بحملات واسعة عبر سورية حتى البحر الأبيض المتوسط وجبال أمانوس وربما فيما وراء تلك الجبال، حتى اجتاز أعماق آسيا الصغرى، ولكنه لم يكتفِ بذلك بل هاجم واستولى على منطقة أخرى تدعى سوبارتو وكان هذا يعني الأراضي الشمالية إلى الشرق من سورية حيث كان الجزء الأوسط منها هو ما يدعى آشور.

obeikandi.com

وهكذا أصبحت آشور جزءاً من إمبراطورية أكاد، ولقد استنتجنا هذه المقولة من نقش وجد على رأس رمح من النحاس اكتشف في المدينة ينص على ما يلي:

((مانشتوسو، ملك كيش: أزورو خادمه صنع هذا الإهداء إلى الإله)).

وكان ما نشتوسو هو حفيد سرجون والحاكم الثالث في تلك السلالة وكان لقبه ملك كيش يدل على كلمة إمبراطور، وكان (أزورو) واحداً من عدة أتباع تحكم باسم مانشتوسو وتابعة له.

ولقد سيطرت أسرة أكاد على نينوى أيضاً وهي إحدى المدن الرئيسية في آشور، ونعلم هذا من قناع برونزي يخص أحد ملوك أكاد، وفوق ذلك فقد كان لنينوى صلات خاصة مع مانشتوسو عرفت من نقش يعود إلى ملك متأخر، وهو يسجل أن المعبد الذي كان يعيد بناءه هذا الملك قد كان مانشتوسو قد بناه، وهكذا وعلى الأقل في حكم مانشتوسو وربما أثناء فترات طويلة من حكم الامبراطورية الأكادية، كانت آشور ونينوى جزءاً من كيان سياسي متكامل يدل على وضع ربما حدد الخطوة الأولية تجاه إنشاء مملكة موحدة، وهي مملكة آشور، مع وجود هاتين المدينتين كمركزين جنوبي وشمالي من مراكز تلك القوة.

نشوء البلدات والمدن

عدا عن شواهد الارتباط مع الإمبراطورية الأكادية، لا نعلم إلا القليل بالضبط عن آشور قبل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، مع أن علم الآثار قد ملأ تلك الصورة مثلاً، نعلم الآن أن عدداً من البلدات كانت تنشأ في آشور في منتصف الألف الثالث ق.م، وقد وجدت إحدى هذه البلدات في تل تايا، اكتشفت حفرياتها عام ١٩٦٧ م، وفيما بعد من قبل الدكتور (جوليان ريد) من المتحف البريطاني، وكان هذا المركز المزدهر الواقع إلى الجنوب من سلسلة جبال سنجار يتألف من ١٢٠ فداناً بامتداد كثيف مع وجود منازل من الحجر والطوب وسور خارجي

obeikandl.com

وشوارع ثم قلعة في الوسط، ويقدر عدد السكان بعشرة أو خمسة عشر ألف نسمة على الأقل.

ولكن يبقى أمامنا عدد من المشكلات بالنسبة لآشور في الألف الثالث ق.م: فهناك مثلاً السؤال الأساسي حول وجود ذلك الكيان الذي نستطيع أن ندعوه آشور، وكما رأينا فقد مضت فترة كانت آشور ونينوى تحت حكم أكاد، ولكن هذه العلاقة قد أتت من الخارج ولم تكن وحدة عضوية، إذن متى كان هناك لأول مرة وحدة مستقلة وطنية سياسية مؤسسة من ثلاث مدن رئيسية وهي نينوى وآشور وآربيل؟

إلى أي حد كانت ثقافة تلك البلاد ذات عنصر وطني مميز؟ وإلى أي حد قد استعيرت تلك الثقافة من الجنوب أو (بالنظر لما بدأنا في تعلمه حول الحضارة المبكرة في سورية) من الغرب؟ وماذا كان التركيب العرقي لتلك البلاد؟ وهل كان ذلك التركيب موحداً على صورة واحدة أم كان هناك مناطق متميزة متصلة بهجرات سابقة لجماعات خاصة؟ وما هي اللغة التي كانت مستعملة؟

يمكن الإجابة على بعض هذه الأسئلة بشكل تجريبي وبعضها لا يمكن ذلك أبداً، هذا وإن كثرة الشواهد النصوصية القادمة من الجنوب تجعل جهلنا أسوأ وتزيد الطين بلة، ولكن هناك بعض الإشارات التي تقدم إجابات لبعض هذه الأسئلة على الأقل، إذ إن إلقاء نظرة على موقع آشور ربما أعطت بعض الدلالات لمعرفة أي نوع من الناس قد عاشوا هناك، ولماذا كان ذلك، فقد بُنيت على صخرة من الحجر الرملي مشرفة على الضفة الغربية لنهر دجلة، وإن هطول الأمطار لا يخدم إلا بصفة هامشية بالنسبة للزراعة في تلك المنطقة دون اللجوء إلى الري، ولطالما حدث نقصان وقحط في المحاصيل الزراعية، إذ إن الاستنتاج المعقول الوحيد هو أن الشعب الذي استقر في تلك الفترة لأول مرة كان يبغي قاعدة من الممكن الدفاع عنها، ذات إمدادات دائمة من المياه، وقريبة من المراعي، ولكن هذا الشعب لم يكن مهتماً بالزراعة، وهذا يشير إلى أنهم كانوا رعاة من الجزيرة كانوا في حالة منظمة بشكل كاف في مجتمع بحاجة إلى قاعدة رئيسية دائمة،

وأن أول المستوطنين قد أتوا من الجزيرة يظهر من كون وقوع آشور إلى الغرب من نهر دجلة، فالمستوطنون يتوقفون عند النقطة حيث يصلون إلى النهر الرئيسي.

وبالمقارنة نجد أن نينوى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، إلى أقصى الشمال على مرأى سفوح التلال في طوروس، وهذا يوحي أنها قد سكنت في الأصل من قبل أناس خرجوا من التلال في الجهة الشمالية الشرقية، ولكن مركز أربيل يوحي بأصل مشابه، وأن التقاليد الدينية تبدو بأنها تصل نينوى بأربيل ولكنها تفصلها عن آشور.

وكانت الآلهة التي تترافق مع المدينتين هي الآلهة عشتار، وقد ذكرت عشتار نينوى وعشتار أربيل في مناسبات عدَّة واعتبرتا إلهتين وطنيتين رئيسيتين، ولكن الإله المرافق لمدينة آشور كان إلهاً ذكراً يحمل نفس الاسم آشور، ولا نعلم بعد كثيراً حول التاريخ المبكر لأي من المدن الثلاث الرئيسية: آشور، ونينوى، وأربيل، مع أن هذه المدن قد تأسست منذ عهد طويل منذ عام (٢٥٠٠ ق.م) وتحتوي التلال التي تضمهم شواهد نستطيع أن نتقصى تلك التطورات في آشور لو كان لدينا النقود والوقت، ولسوء الحظ فإن أربيل ظلت غير مكتشفة، ومع أنه قد حصلت نشاطات أثرية لا بأس بها في آشور ونينوى إلا أن هناك صعوبات تقنية حددت المعلومات حول الفترات المبكرة، وقد بدأ استكشاف نينوى بشكل متقطع منذ عام (١٨٤٢) ولكن الجزء الأعظم من نشاطات من هذا النوع قد تركزت بالقصور التي بُنيت في عصر الإمبراطورية في الألف الأول، وكان الاستثناء الوحيد هو السبر العميق الذي حُفِر من قبل **M. E. L.** (سمي فيما بعد السيد ماكس مالوين عام ١٩٣٢) الذي وصل إلى الأرض البكر بعد حفر تسعين قدماً أسفل قمة التل، ولكن وبينما أعطى هذا العمل تتابع الأواني الفخارية رجوعاً إلى أزمنة ما قبل التاريخ، وأظهر أن هذا الركام قد كان مسكوناً نحو عام (٥٠٠٠ ق.م) إلا أنه لم تقدم سوى معلومات قليلة نوعية حول نمو تلك المدينة وتقدمها اعتباراً من كونها مستوطنة حتى أصبحت مدينة رئيسية.

آشور الأولى

تأتي معلوماتنا حول آشور الأولى من معبد مكرَّس للإله عشتار، وقد ثبتت صحة هذه المعلومات بعد عام (٢٨٠٠) ومن الواضح أن آشور في ذلك الوقت كانت عبارة عن مركز ديني تحتوي على عدة أبنية أثرية، على الرغم من أنها كانت مصنوعة من الآجر، وكان الدين يحتل مكاناً مرموقاً في البنية الاجتماعية والاقتصادية، وليس من الضروري أن نستنتج والحالة هذه أن القوة الدينية كانت منفصلة عن القوة المدنية على ضوء الألقاب الدينية ووظائف الملوك الآشوريين الذين سوف نقابلهم فيما بعد، بل إن كلتا القوتين كانتا متشابكتين.

هذا وإن اللقى التي وجدت في المعبد القديم لا تخبرنا إلا القليل حول الحياة في الألف الثالث ق.م، وبين هذه توجد نماذج من الفخار للمنازل، ومع أنه كان لتلك النماذج بعض الوظائف الدينية إلا أنه من المعقول أن نفترض أنها كانت نماذج لأنواع حقيقية من المساكن، وأن ما يظهر منها هو منزل ذو سقف منبسط مؤلف من طابقين من الأمام وطابق واحد من الخلف.

وهذا يوحي أن المسكن النموذجي كان مؤلفاً من طابق واحد فيه حجرة واحدة عليا حسب ما تذكره التوراة، وهذه الحجرة مبنية فوق المنزل من الأمام، وهناك نموذج لنفس الشكل يظهر ثلاثة طوابق أي: حجرة علوية واحدة مبنية فوق بناية مؤلفة من طابقين، وهناك في المعبد القديم تماثيل يظهر بأنها سومرية تعود إلى فترة السلالات الأولى، وهذا لا يتطلب منا أن نفترض أن المجموعة الحاكمة في آشور كانت من السومريين ولكنها تظهر أنه قد كان هناك نفوذ سومري ثقافي قوي.

وقد وجد نقش نافر من الجص يظهر الآلهة وهي مرتدية جواهرها حتى أذنيها وجيدها ولكنها عارية عند ثدييها وسُرَّتها وهي مضطجعة على الفراش في سريرها، وهذا يظهر في الوقت نفسه وجود مراسم وطقوس تعبدية جنسية على شرف الآلهة ويظهر أيضاً استعمال السرير ويظهر هذا السرير بشكل لوح منبسط دون أرجل.

obeikandl.com

وهناك معلومات أخرى حول آشور الأولى يتقدمها اسم آشور، فبالإضافة إلى الاسم المعتاد إلا أنه يشار إليه باسم بالتيل مع أن هذا الاسم الأخير قد حظي بتفسير سومري فيما بعد من قبل علم اشتقاق اللغة الشعبي إلا أنه لا ينتمي إلى السومرية ولا إلى السامية، والحقيقة أنه ينتمي إلى لغةٍ تابعة إلى طبقة قديمة من السكان كانت تستعمل حرفي **(el)** في نهاية بعض أسماء الأماكن مثل كلمة بابل أو أربيل أو كوربيل ولقد فسرت هذه الذي **(el)** بشكل مغلوط بأنها تشير إلى اسم الإله باللغة السامية. ولكن هذا الاسم غير السومري وغير السامي يوحي أنه قد نشأت مستوطنة هناك قبل أن يستوطن السومريون أو الساميون ويصبحون مسيطرين عرقياً في تلك المنطقة.

oneikandi.com